

سورة الجاثية

هي مكية إلا الآية الثامنة فمدنية .
 وعدة آياتها سبع وثلاثون ، نزلت بعد سورة الدخان .
 ومناسبتها لما قبلها: أن أول هذه مُشاكل لآخر سابقتها في الأغراض والمقاصد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن
 دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ
 السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ
 لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) .

شرح المفردات

لآيات: أى لعبارة ، يثبت: أى يفرق وينشر ، اختلاف الليل والنهار: أى
 تعاقبهما ليلاً بعد نهار ونهاراً بعد ليل ، من رزق: أى من مطر ، وسمى بذلك لأنه
 سبب له ، وتصريف الرياح: أى تغييرها من جهة إلى أخرى ، ومن حال
 إلى حال .

الإيضاح

(حَمَّ) قد عرفت الكلام في أمثالها من قبل .
 (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) أى إن هذا الكتاب الكريم

أنزله العزيز الغالب القاهر لكل شيء ، الحكيم في تديره لكل ما خلق ، فهو سبحانه مع قهره للعوالم المادية والروحية لا يتصرف إلا بالحكمة كما يشاهد في النبات والحيوان والأجسام الإنسانية ودوران الكواكب وانتظامها في سيرها ، فكل ذلك من القهر والغلبة لها مع الحكمة في صنعها ، ومن ثم أعقب ذلك بنتائج العزة والحكمة فقال :

(إن في السموات والأرض آيات للمؤمنين) أى إن في السموات السبع اللاتى منهن ينزل الغيث ، وفي الأرض التى منها يخرج الخلق — لأدلة واضحة للمصدقين بالحجج إذا تأملوها وفكروا فيها تفكير من يسلك السبيل القويم ، فيرتب المقدمات ليصل منها إلى النتائج التى هى لازمة لها بحكم النظام الفكرى ، والترتيب العقلى . وبعد أن ذكر الأدلة الكونية التى فى الآفاق أتبعها بذكر الأدلة التى فى الأنفس فقال :

(وفى خلقكم وما بيث من دابة آيات لقوم يوقنون) أى وإن فى خلق الله إياكم على أطوار مختلفة من تراب ثم من نطفة إلى أن تصيروا أناسى ، وفى خلق ما تفرق فى الكون من الدواب — لحججاً لقوم يوقنون بحقائق الأشياء فيقررونها بعد العلم بصحتها .

(واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) أى وإن فى تعاقب الليل والنهار عليكم ، هذا بظلمته وسواده ، وهذا بنوره وضيائه ، وفيما أنزل الله من السماء من مطر تحيا به الأرض بعد موتها ، فتهتز بالنبات والزرع من بعد جدوبها وقحوطها ، فتخرج أرزاق العباد وأقواتهم ، وفى تصريف الرياح لمنافعكم شمالية مرة وجنوبية أخرى ، صبا مرة ، ودبورا أخرى — لأدلة وحججاً لله على خلقه الذين يعقلون عن الله حججه ويفهمون ما وعظهم به من الآيات والعبير .

وقضارى ماسلف — إنكم إذا تأملتم الحكم المنبثة في السموات والأرض
 آمنتم بوحدة خالقها وقدرته، فإذا ازددتم علماً، ازداد تثبتكم وفهمكم فصرتم موقنين بها
 لأن الإيقان يكون بتوافر الأدلة وتكاثرها، ومتى أيقنتم بحال هذا الكون وحسن
 نظامه أصبحتم من ذوى العقول الناضجة، والأفكار النافذة في أسرار هذا الكون
 وبديع صنعه، فتستطيعون أن تنتفعوا بما فيه وتسخره لمنافعكم في هذه الحياة
 المليئة بالمطالب.

وإجمال ذلك — إن أول المراتب الإيمان بالله، فإذا ازداد المرء علماً وحكمة
 وبحثاً في دقائق الأشياء وعظائماً أصبح موقناً به، وكلما ازداد بحثاً ازداد عقله
 دراية وفهماً لأسرار هذا الكون، فسخره لمنافعه، واستفاد من نظمته التي وجد عليها
 وعرف أنه لم يخلق عبثاً، بل خلق للانتفاع بما في ظاهره وباطنه، علوية وسفلية،
 أرضه وسماؤه، نوره وظلامه، فكأنه يقول: إنا أمرناكم بالنظر في العالم لتؤمنوا،
 فإذا ازددتم علماً أيقنتم بي، وذلك كله مما يربى عقولكم ويكملها إلى أقصى حدود
 طاقتها البشرية.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ
 يُؤْمِنُونَ (٦) وَيَلِكُ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْقَلِي عَلَيْهِ ثُمَّ
 يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ
 آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ جَهَنَّمَ
 وَلَا يُعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ
 عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ
 مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (١١)

شرح المفردات

الأفك : كثير الإفك والكذب ، والأثيم : كثير الإثم والمعاصى ، والإصرار على الشيء : ملازمته ، من ورائهم : أى من بعد آجالهم ، يفتى : أى يدفع ، أولياء : أى أصناما ، والرجز : أشد العذاب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر آيات القرآن العظيم — أشار إلى ما لها من علو المرتبة ورفيع الدرجة ، ثم أوعد من كذبوا بها بعد سماعها وأصروا على كفرهم بها — بالويل والثبور ، وعظام الأمور ، ثم بين أن عاقبتهم النار ، وبئس القرار ، ولا تنفعهم أصنامهم شيئا ، ولا تدفع عنهم ما قدر لهم من العذاب .

الإيضاح

(تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق) أى هذه آيات القرآن بما فيها من حجج وبيانات ، تتلوها عليك متضمنة للحق .

(فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟) أى فبأى حديث أيها القوم بعد حديث الله الذى يتلوه على رسوله ، وبعد حججه وبرهاناته التى دلصم بها على وحدانيته — تصدقون إن كذبتم به .

والخلاصة — إذا كنتم لا تؤمنون بهذه الآيات ولا تنقادون لها ، فم تؤمنون ؟ وإلام تنقادون ؟

وبعد أن بين للكفار آياته وذكر أنهم إن لم يؤمنوا بها فبأى حديث بعدها يؤمنون ؟ أتبعه بالوعيد العظيم لهم فقال :

(ويل لكل أفاك أثيم) أي فالويل أشد الويل ، والعذاب أقسى العذاب لكل كذاب في قوله ، أثيم في فعله .

وبعد أن وصف هذا الأفاك بالإثم أولاً ، أتبعه بوصفه بالاستكبار عن سماع الآيات فقال :

(يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرّ مستكبراً كأن لم يسمعها) أي إذا سمع آيات الله تقرأ عليه وهي مشتملة على الوعد والوعيد والإنذار والتبشير والأمر والنهي والحكم والآداب ، أصرّ على الكفر بها وجحدها عناداً كأنه ماسمها .

ثم أوعده على ما فعل عذاباً أليماً في نار جهنم فقال :

(فبشره بعذاب أليم) أي فبشره أيها الرسول بالعذاب المؤلم الموجه في جهنم وبئس القرار .

وفي تسمية هذا الخبر الحزن بشرى ، وهي لا تكون إلا في الأمر السار — تهكم بهم واحتقار لشأنهم ، فهو من وادى قوله للكافر « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » وقول الشاعر :

* تَحِيَّةٌ يَنْهَمُ ضَرْبٌ وَجِيمٌ *

نزلت الآية في النضر بن الحرث وكان يشتري أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن ، وهي عامة في كل من كان صادّاً عن الدين مستكبراً عن اتباع هدايته .

(وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً) أي وإذا وصل إليه خبرها وبلغه شيء منها جعلها هزواً وسخرية ، فقد روى أن أبا جهل حين سمع قوله تعالى « إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ » دعا بتمر وزبد وقال لأصحابه : تزقوا من هذا ، ما بعدكم محمد إلا شهداء ، وحين سمع قوله « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » أي على النار قال : إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدي .

ثم ذكر ما يصيب هؤلاء من العذاب فقال :

(أولئك لهم عذاب مهين) أى أولئك الأفاكون المتصفون بتلك الصفات لهم العذاب الذى يهينهم ويذلهم فى نار جهنم بما كانوا فى الدنيا يستكبرون عن طاعة الله واتباع آياته واتخاذها هزوا .

(من ورأهم جهنم) أى ومن وراء ما هم فيه من التعزز بالدنيا والتكبر جهنم ، والمراد أنها من قدامهم لأنهم متوجهون إليها .

(ولا يفتى عنهم ما كسبوا شيئا) أى ولا يدفع العذاب عنهم ما كسبوا من الأموال والأولاد .

(ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) أى ولا تفتى عنهم أصنامهم التى عبدوها من دون الله شيئا .

(ولهم عذاب عظيم) أى ولهم من الله يومئذ عذاب عظيم لا يقدر قدره .

(هذا هدى) أى هذا القرآن الذى أنزلناه إليك أيها الرسول هادى إلى الحق وإلى صراط مستقيم لمن اتبعه وعمل بما فيه .

(والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) أى والذين جحدوا بآياته الكونية فى الأنفس والآفاق وآياته المنزلة على السنة رسله لهم العذاب المؤلم الموجه يوم القيامة .

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَمْقِرُونَ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَمُونَ (١٥)

شرح المفردات

سخر: هبأ، الفلك السفينة، والابتغاء: الطلب، يغفر: أى يعمو ويصفح،
لا يرجون: أى لا يتوقعون حصولها، وأيام الله: وقائمه بأعداء دينه كما يقال لوقائع
العرب أيام العرب، والقوم هم المؤمنون الفارون.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف الحجج الدالة على ربوبيته ووحدانيته — أردف ذلك
بذكر آثارها، فمن ذلك تسخير السفن فى البحار حاملة للأقوات والمتاجر رجاء أن
تشكروا ما أنعم به عليكم، ومنها تسخير ما فى السموات والأرض من شمس وأقمار
وبحار وجبال، لتنتفعوا بها فى مرافقكم وشئونكم المعيشية.
ثم أمر المؤمنين بأحسن الأخلاق، فطلب إليهم أن يصفحوا عن الكافرين
ويحتملوا أذاهم، وعند الله جزاؤهم، فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها، ويوم
القيامة يعرضون على ربهم ويجازى كل نفس بما كسبت من خيرا أو شرا.

الإيضاح

(الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم
تشكرون) أى إن ذلك الخالق الواحد الذى أتمت لكم الأدلة على وجوده — هو
الذى يسر لكم استخدام البحر لتجرى فيه السفن بإذنه وقدرته، حاملة أقواتكم
ومتاجركم لتقوم بشئونكم المعيشية، ولتطلبوا رزق ربكم منه بالنوص للدر تارة

والصيد تارة أخرى ، ولتشكروه على ما أفاض عليكم من هذه النعم ، فتعبدهو وتطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه .

(وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى وسخر لكم جميع ما خلقه في سمواته وأرضه مما تتعلق به مصالحكم وتقوم به معاشكم ، فما سخر لكم من مخلوقات السماوية الشمس والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح ، ومن المخلوقات الأرضية الدواب والأشجار والجبال والسفن رحمة منه وفضلا ، وكل هذه أدلة على أنه الله الذى لا إله غيره لمن تأمل فيها واعتبرها وتدبرها حق التدبر .

وإخلاصة — إن العالم كله كأنه جسم واحد يحتاج كل جزء منه إلى الأجزاء الباقية ، فلا يستقيم مطر بلا حرارة شمس ، ولا تسير سفن الإبهواء أو كهرباء وما شاكل ذلك ؛ فالعالم كله كساعة منتظمة لا يستقيم سيرها إلا إذا استكملت آلاتها وعُددها .

وعن طاوس قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله م خلق الخلق ؟ فقال من الماء والنور والظلمة والهواء والتراب ، قال فم خلق هؤلاء ؟ قال لا أدري ، ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله ، فقال مثل قول عبد الله بن عمرو ، فأتى ابن عباس فسأله م خلق الخلق ؟ فقال من الماء والنور والظلمة والريح والتراب ، قال م خلق هؤلاء ، فقرأ ابن عباس : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » فقال الرجل ما كان ليأتى بهذا إلا رجل من أهل بيت النبوة .

ولما علم سبحانه عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة — أردوه بتعليمهم فضائل الأخلاق فقال :

(قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) أى قل للذين صدقوا الله

ورسوله : اعفوا واصفحوا عن هؤلاء المشركين الذين لا يخافون بأس الله ونقمته ،
إذا نالكم منهم أذى ومكروه قاله مجاهد .

روى الواحدى والقشيري عن ابن عباس أن الآية نزلت في عمر بن الخطاب مع
عبد الله بن أبي في غزوة بني المصطلق ، فإنهم نزلوا على بئر يقال لها المرئسيع ،
فأرسل عبد الله غلامه ليستقي فأبطأ عليه ، فقال ما حبسك ؟ قال غلام عمر قعد على فم
البئر ، فما ترك أحدا يستقي حتى ملأ قرب النبي صلى الله عليه وسلم وقرب أبي بكر
وملأ لمولاه ، فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل «سَمِّنْ كَلْبَكَ يَا كَلْكُ»
فبلغ عمر قوله ، فاشتعل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله ، فأنزل الله هذه الآية :

وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس سببا آخر قال : لما نزل قوله تعالى :
« مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » قال يهودى بالمدينة يسمى فنحاصا ،
احتاج رب محمد . قال فلما سمع عمر بذلك اشتعل على سيفه وخرج في طلبه ، فجاء
جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن ربك يقول لك « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا
يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلب
عمر ، فلما جاء قال : (يا عمر ضع سيفك) قال يا رسول الله صدقت . أشهد إنك
أرسلت بالحق ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية . فقال عمر : لا جرم والذي
بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي .

ثم علل الأمر بالمغفرة فقال :

(ليجزى قوما بما كانوا يكسبون) أى ليجزى الله تعالى يوم القيامة قوما
بما كسبوا في الدنيا من أعمال طيبة ، من جعلتها الصبر على أذى الكفار والإغضاء
عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه — ما لا يحيط به الوصف من الثواب العظيم
في جنات النعيم .

ولما رغب سبحانه ورهب وقرر أنه لا بد من الجزاء — أبان أن النفع والضرر لا يعدو المحسن والمسيء فقال :

(من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) أى من عمل من عباد الله بطاعته ، فاتتهى إلى أمره وازدجر عن نهيه — فلنفسه عمل ، ولها طلب الخلاص من عذابه ، والله غنى عن كل عامل ، ومن أساء عمله فى الدنيا بمعصية ربه فعلى نفسه جنى ، ولها اكتسب الضرر .

ثم بين وقت الجزاء فقال :

(ثم إلى ربكم ترجعون) أى ثم تصيرون إلى ربكم حين العرض للحساب ، فيجازى المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

وَلَقَدْ آتَيْنَا ابْنَ إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ
مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ
فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ
الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)
هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)

شرح المفردات

الكتاب : المراد به الكتب التى نزلت على أنبيائهم ، الحكم : الفصل بين الناس فى الخصومات ؛ لأنهم كانوا ملوكا ، بينات من الأمر : أى دلائل واضحات

في أمر الدين ؛ ويندرج فيها معجزات موسى عليه السلام ، بغيًا : أى حسداً وعتاداً ، على شريعة من الأمر : أى على طريقة ومنهاج في أمر الدين . وأصل الشريعة مورد الماء في الأنهار ونحوها ، وشريعة الدين يرد منها الناس إلى رحمة الله والقرب منه ، بصائر للناس : أى معالم للدين بمنزلة البصائر في القلوب .

المعنى الجملى

اعلم أن الله سبحانه بين أنه أنعم على بني إسرائيل بنعم كثيرة ، وقد حصل بينهم الاختلاف بغيًا وحسدًا ، وجاء ذكر هذا تسلية لرسوله بأن قومه ليسوا ببدع في الأمم بل طريقهم طريق من تقدمهم ، ثم أمر رسوله بأن يتمسك بالحق ولا يكون له غرض سوى إظهاره ولا يتبع أهواء الجاهلين الضالين ، ثم ذكر أن القرآن معالم للهداية تهتدى بها القلوب الضالة عن طريق الحق ، فتلازم الجادة وتصل إلى طريق النجاة .

الإيضاح

(ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر) امتن سبحانه على بني إسرائيل بما أنعم به عليهم من وافر النعم الدينية والدينية وذكر من ذلك :

(١) إنزال التوراة على موسى فيها معالم للهدى وشرائع للناس تهديهم إلى سواء السبيل .

(٢) إرسال الرسل فكثرت فيهم الأنبياء بما لم يكن لأمة مثله .

(٣) القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم ، إذ كان الملك فيهم ، فاجتمع

لهم حكم الدين وحكم الدنيا .

(٤) إيتاؤهم طيبات الأرزاق فكانوا ذوى ترف ونعيم في معاشهم ، وكان

منهم الملوك ذوو الحظ الأوفر من العظمة والفضل وسعة الجاه والأمر والنهي وبسطة العيش كداود وسليمان عليهما السلام .

(٥) تفضيلهم على الناس جميعا ، إذ لم يكن في أمة أنبياء كما كان فيهم ، ولم يجمع الله بين الملك والنبوة في شعب كما اجتمع فيهم ، فهم أرفع الشعوب منقبة .
قال ابن عباس : لم يكن أحد من العالمين أكرم على الله ولا أحب إليه منهم اه وقد آتاهم من الآيات المرثية والمسموعة وأكثر فيهم من الأنبياء بما لم يفعله بغيرهم من سبق .

(٦) إيتاؤهم أحكاما ومواعظ مؤيدة بالمعجزات ، وقد كان هذا مما يستدعى ألفتهم واجتماعهم ، وكانوا كذلك لا يختلفون إلا اختلافا يسيرا لا يضر مثله ، فلما جاءهم العلم اختلفوا كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فما اختلفوا حتى جاءهم العلم بغيا بينهم) أى فما حدث فيهم هذا الخلاف إلا بعد قيام الحجة طلبا للرياسة وحسدا فيما بينهم ، وقد سبق تفصيله في سورة حم عسق :

ثم وكل سبحانه أمر المختلفين إليه للقضاء بينهم يوم القيامة فقال :

(إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى إن ربك سبحانه يقضى بين المختلفين من بنى إسرائيل بغيا وحسدا فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا بعد العلم الذى آتاهم ، والبيان الذى جاءهم منه ، ويجعل الفلج المحق على المبطل ؛ والمقصد من هذا أنه لا ينبغي أن يفتر المبطل بنعم الدنيا ، فإنها وإن ساوت نعم الحق أو زادت عليها ، فهو سيرى في الآخرة ما يسوءه .

وفي هذا تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم ، وأن تسير على نهجهم .

ولما بين أنهم أعرضوا عن الحق بغيا وحسدا — أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعدل عن هذه الطريقة وأن يستمسك بالحق فقال :

(ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) أى ثم جعلناك بعد بنى إسرائيل الذين وصفت لك صفتهم — على نهج خاص من أمر الدين ، فاتبع ما أوحى إليك ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون الذين لا يعلمون توحيد الله ولا شرائعه لعباده وهم كفار قريش ومن وافقهم فهلك .

ثم علل النهى عن اتباع أهوائهم فقال :

(إنهم لن يغفوا عنك من الله شيئاً) أى إن هؤلاء الجاهلين بربهم لا يدفعون عنك شيئاً مما أراد بك إن اتبعت أهواءهم وخالفت شريعته .

ثم بين أولياء الكافرين وأولياء المؤمنين فقال :

(وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض) أى وإن الكافرين ليتولى بعضهم شئون بعض فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلا ولى ولا شفيع ولا نصير يجلب لهم ثواباً ولا يدفع عنهم عقاباً .

(والله ولىّ المتقين) أى والمتقون المهتدون وليهم الله وهو ناصرهم ومخرجهم من الظلمات إلى النور ، والكافرون أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، فما أبعد الفرق بين الولايتين :

شتان ما يؤمى على كورها ويوم حيان أخى جابر

وقصارى ماسلف — دم على ما أنت عليه من اعتمادك على ولاية ربك ونصرته ، وأعرض عما سواه .

ثم بين فضل القرآن وذكر ما يجلبه التمسك بحبله المتين فقال :

(هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون) أى هذا القرآن دلائل للناس

فيا يحتاجون إليه من أمر الدين وبيئات تبصرهم وجه الفلاح ، وتعرفهم سبيل الهدى وهو هدى ورحمة لقوم يوقنون بصحته ، وهو تنزيل من رب العالمين

وإنما خص الموقنين بأنه لهم هدى ورحمة ، لأنهم هم الذين ينتفعون بما فيه دون

من كذب به من أهل الكفر فإنه عليهم عى

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَحْمَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ
 لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَمَّ
 عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا
 تَذَكَّرُونَ (٢٣) .

شرح المفردات

الاجتراح : الاكتساب ، ومنه الجارحة للأعضاء التي يكتسب بها كالأيدى ،
 والمراد بالسيئات : سيئات الكفر والإشراك بالله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الفارق بين الكافرين والمؤمنين فى الولاية ، فأبان أن الأولين
 بعضهم أولياء بعض ، وأن الآخرين وليهم الله — أردف ذلك بذكر الفارق بينهم
 فى الحيا والمات ، فالحسنون مرحومون فى الحالين ، ومجترحو السيئات مرحومون
 فى الدنيا فحسب ، ثم ذكر الدليل على هذا بأن الله ما خلق الخلق إلا بالحق المتقضى
 للعدل والانتصاف للمظلوم من الظالم والتفاوت بين الحسن والسوء فى الجزاء ، وإذا
 لم يكن هذا فى الحيا كان فى دار الجزاء حتما ، لتجزى كل نفس بما كسبت ، فلا تظلم
 بنقص ثواب أو بمضاعفة عقاب .

ثم عجب سبحانه من ركب رأسه واتبع هواه وترك الهدى وأضله الله وهو العليم
 باستعداده وخبث طويته ، وأنه ممن يميل إلى تدسية نفسه واجتراح الآثام والمعاصى ،

فهو ممن ختم الله على سمعه وقلبه ، فلا يتأثر بعظة ولا يفكر في آية ، وجعل على بصره غشاوة مانعة من الاستبصار والاعتبار ، فمن بعد الله يهديه ؟ أفلا تتذكرون وتتفكرون في هذا ؟

روى الكلبي في تفسيره أن عتبة وشيبة والوليد بن عتبة قالوا لعلي وحمة وجمع من المؤمنين : والله ما أنتم على شيء ، ولو كان ماتقولونه حقا ، لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما هو أفضل في الدنيا ، فنزلت الآية « أم حسب الذين اجترحوا السيئات الخ » .

الإيضاح

(أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعلما بالصالحات سواء بحياهم وبعثهم) أى أيعظ هؤلاء الذين اكتسبوا الإثم والمعاصي في الدنيا فكفروا بالله وكذبوا الرسل وخالفوا أمره وعبدوا غيره ، أن نجعلهم كالذين آمنوا به وصدقوا رسله ، فساوى بينهم في دار الدنيا وفي الآخرة — كلا لا يستوون في شيء منهما ؛ فإن أهل السعادة في عز الإيمان والطاعة وشرفهما في الحيا ، وفي رحمة الله ورضوانه في المات ؛ وأهل الشقاء في ذل الكفر والمعاصي وهوانهما في الحيا ، وفي لعنة الله والعذاب الخالد في المات ، فشتان ما بينهما وما أبعدهما بين الثريا والثرى . ونحو الآية قوله تعالى : « لَأَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ » وقوله : « أَمْ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَأَسْتَوُونَ » (سواء ما يحكمون) أى سواء ما ضنوا وبعده أن يساوى بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة وفي هذه الدار .

وفي الآية إرشاد إلى تباين حالى المؤمن العاصى والمؤمن الطائع . وقد أثر عن كثير من الناسكين الخبيثين إلى ربهم أنهم كانوا يبكون عند تلاوة هذه الآية حتى سموها مبكة العابدين .

أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد والطبراني وجماعة عن أبي الضحى قال:
قرأ تميم الداري سورة الجاثية فلما أتى على قوله: « أم حسب الذين اجترحوا
السيئات » الآية لم يزل يكررها ويبكى حتى أصبح وهو عند المقام .
وأخرج ابن أبي شيبة عن بشير مولى الربيع بن خيثم أن الربيع كان يصلي فمر
بهذه الآية (أم حسب الذين) فلم يزل يرددتها حتى أصبح .
وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها : ليت شعري من أي
الفر يقين أنت ؟ .

ثم أقام الدليل على عدم التساوي وأبان حكمة ذلك فقال :
(وخلق الله السموات والأرض بالحق) أي لم يخلق الله السموات والأرض
للجور والظلم ، بل خلقهما للحق والعدل ، ومن العدل أن يخالف بين الحسن والمسيء
في العاجل والآجل .

(ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) أي وليثيب كل عامل بما هو
له أهل ، فلا يبغض المحسن ثواب إحسانه ، أو يجعل عليه جرم غيره فيما قبله به ،
أو يجعل للمسيء ثواب إحسان غيره .
والخلاصة — كل عامل يجزى بما كسبت يده ، ولا يظلم بنقص ثواب ،
ولا بتضعيف عقاب .

ثم عاد الكلام إلى بيان أحوال الكافرين وذكر جنائياتهم على أنفسهم فقال .
(أفأريت من اتخذ إلهه هواه ؟) أي انظر وأعجب من حال من ركب رأسه ،
وترك الهدى ، وأطاع الهوى ، فكأنه جعله إلهاً يعبد من دون الله ، فهو لا يهوى
شيئاً إلا فعله ، لا يخاف ربا ولا يخشى عقاباً ، ولا يفكر في عاقبة ما يعمل .
وفي هذا إيماء إلى ذم اتباع هوى النفس ، ومن ثم قال وهب بن منبّه : إذا
شدكت في خير أمرين فانظر أبعدهما من هوك فأنه . وقال سهل النسّري : هوك
داؤك ، فإن خالفته فدواؤك ، وقال الإشبيلي الزاهد :

فخالف هواها واعصها إن من يطع هوى نفسه ينزع به شر منزع
ومن يطع النفس اللجوجة تُرَدِّه وتُرْمِ به في مصرع أي مصرع
وقال البوصيري في بردته :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

وقال ابن عباس : ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمّه ، قال تعالى « وَاتَّبِعْ
هَوَاهُ قَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ » وقال « وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » وقال
« وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن
أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به » وقال أبو أمامة: سمعت النبي صلى الله
عليه وسلم يقول « ما عُيِدَ تحت السماء إله أبعث إلى الله من الهوى » وروى شَدَاد
ابن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد
الموت ، والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » وعنه عليه السلام أنه قال
« إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأى برأيه
فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة » وعنه أنه قال « ثلاث مهلكات ، وثلاث
منجيات ، فالمهلكات شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ؛ والمنجيات
خشية الله في السر والعلن ، والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في الرضا والغضب » .
وحسبك ذمّاً لاتباع الهوى قوله تعالى « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى
النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » .

(وأضله الله على علم) أي خذله الله فلم يجعله يسلك سبيل الرشاد ، لأنه قد علم
أنه لا يهتدى ولو جاءته كل آية ، لما في جوهر نفسه من الميل إلى ارتكاب
الإجرام ، واتباع الشهوات ، فهو يوغل في القبائح دون زاجر ولا وازع .

(وختم على سمعه) أى وقد طبع على سمعه ، فلا يتأثر بالآيات تنلى عليه ليعتبرها ولا يتدبرها ليعقل ما فيها من النور والهدى .

(وقلبه) أى وختم على قلبه ، فلا يعى حقاً ، ولا يسترشد إلى صواب .

(وجعل على بصره غشاوة) تمنعه أن يبصر حجج الله وآياته فى الآفاق والأفئس ، فيستدل بها على وحدانيته ويعلم بها أن لا إله غيره .

قال مقاتل : نزلت فى أبى جهل . ذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد ابن المغيرة ، فتحدثا فى شأن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو جهل : والله إنى لأعلم أنه صادق ، فقال له مته ، وما ذلك على ذلك ؟ قال : يا أبا عبد شمس كنا نسميه فى صباه الصادق الأمين ، فلما تم عقله وكل رشده نسميه الكذاب الخائن ، والله إنى لأعلم أنه صادق ، قال فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به ؟ قال : تتحدث عنى بنات قریش أنى اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كسرة ، واللات والعزرى إن اتبعته أبدا فنزلت « وختم على سمعه وقلبه » .

ونحو الآية قوله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

ثم ذكر أن مثل هذا لا أمل فى هدايته فقال :

(فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟) أى فمن يوفقه لإصابة الحق ، وإبصار محجة الرشد بعد إضلال الله إياه ، أى لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك ، أفلا تذكرون أيها القوم فتعلموا أن من فعل الله به ما وصفنا ، فلن يهتدى أبداً ، ولن يجد لنفسه ولياً ولا مرشداً .

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ
 وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
 يَنبَغُ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)
 قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ يُعِثُّكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ
 فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن المشركين قد اتخذوا إلههم هواهم ، وأن الله قد أضلهم
 على علم بحالهم ، وأنه ختم على سمعهم وقلوبهم وجعل على بصرهم غشاوة — ذكر هنا
 جناية أخرى من جنائياتهم ، وحماسة من حماقتهم ، تلك أنهم أنكروا البعث وقالوا
 ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما ذلك منهم إلا ظنون
 وأوهام لامستند لها من عقل ولا عقل ، ولم يجدوا حجة يقولونها إلا أن قالوا : إن
 كان ما تقوله حقا فارجعوا آباءنا الموتى إلى الحياة ، فأسر الله رسوله أن يجيبهم بأن
 الله هو الذى يجيبهم ثم يعيثهم ثم يجمعهم فى يوم لا شك فيه ، ولكن أكثر الناس
 لا يعلمون حقيقة ذلك .

الإيضاح

(وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) أى وقال المشركون الذين سبق
 ذكر بعض أوصافهم : لا حياة بعد هذه الحياة التى نحن نعيش فيها ، فنموت ونحن
 ونحيا أبناؤنا من بعدنا — وهذا تكذيب صريح منهم للبعث والمعاد .
 وقصارى ذلك — ما تم إلا هذه الدار يموت قوم ويعيش آخرون ، وليس
 هناك بعث ولا قيامة .

(وما يهلكنا إلا الدهر) أى وما يفيتنا إلا مرّ الليالى والأيام ، فرورها هو المؤثر فى هلاك الأنفس ، ويضيفون كل حادث إلى الدهر وأشعارهم ناطقة بذلك قال :
أشاب الصغير وأفنى الكبير كركّ الغداة ومرّ العشى
وقد كان العرب فى جاهليتهم إذا أصابتهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا ياخيبية الدهر ، وقد جاء النهى عن سبّ الدهر فجاء فى الحديث القدسى يقول الله عز وجل :
« يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى : استمرضت عبدى فلم يعطى ، وسبى عبدى يقول وادهراه وأنا الدهر » .
قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » كان العرب فى الجاهلية إذا أصيبوا بشدة أو بلاء قالوا ياخيبية الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله ، فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة ، فلذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ، لأنّ الله تعالى هو الدهر الذى يعنونه ، ويسندون إليه تلك الأفعال .

ثم نعى عليهم مقالهم هذا الذى لادليل عليه فقال :

(وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) أى وما لهم يقصر الحياة على حياة الدنيا ، ونسبة الإهلاك إلى الدهر — علم يستند إلى عقل أو نقل ، وقصارى أمرهم اللظن والتخمين من غير أن يكون لهم ما يتمسكون به من حجة نافذة .

وفى الآية إشارة إلى أن القول بغير بينة ولا حجة — لاينبغى أن يعول عليه ، وأن اتباع الظن منكر عند الله .

ثم ذكر شبهتهم على إنكار البعث فقال :

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حججهم إلا أن قالوا آياتنا بآياتنا إن

كنتم صادقين) أى وإذا تلى على هؤلاء المشركين الذين سبق القول في جرائمهم — آيات الكتاب الدالة على أن البعث حق ، وأن الله سيعيد الخلق يوم القيامة وينشئه نشأة أخرى — لم يكن لهم من حجة في دحض هذا إلا أن قالوا إن كان ما تقولونه حقاً فانشروا لنا آباءنا الأولين وابشروهم من قبورهم أحياء حتى نعتقد صحة ما تقولون .

وهذا قول آفون وكلام لا ينبغى أن يصدر من عاقل ، فإنه لا يلازم من عدم حصول الشيء في الحال كإعادة آباءهم التى طلبوها في الدنيا — امتناعه فيما بعد إذا قامت القيامة وبعث الله الموتى من قبورهم للعرض والحساب .

وتسمية كلامهم الزائف حجة — ضرب من التهمك بهم على نحو قوله :

* تَحِيَةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ *

ثم أمر سبحانه رسوله أن يرد عليهم فقال :

(قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة) أى قل هؤلاء المشركين المنكرين للبعث : الله يحييكم ما شاء أن يحييكم في الدنيا ، ثم يميتكم فيها متى شاء ، ثم يجمعكم جميعاً أولكم وآخركم صغيركم وكبيركم يوم القيامة .

ثم أكد ذلك بقوله :

(لا ريب فيه) أى لا ريب في هذا الجمع والبعث ، فإن من قدر على البدء بقدر على الإعادة ، والحكمة قاضية بذلك ، لتجزى كل نفس بما كسبت ، والأديان جميعاً متضافرة على تحققه وحصوله يوم القيامة .

وقصارى ما سلف — إن البعث أمر ممكن أخبر به الأنبياء الصادقون ، والحكمة تقتضى حصوله والعقل يؤيد ذلك ، فهو واقع لا محالة .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى ولكن أكثر الناس ينكرون البعث

ويستبعدون عودة الأجساد بعد موتها وحين تكون عظاماً نخرة كما قال :

« إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَرَأَاهُ قَرِيبًا » أى يرون وقوعه بعيدا والمؤمنون يرونه قريبا ، وما دعاهم إلى ذلك إلا جهلهم وقصر نظرهم ، لا لأن فيه شائبة ريب .

وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدُ بِخِصْرٍ
 الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ
 تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا
 كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) .

شرح المفردات

جائية : أى باركة على الركب مستوفزة، وهى هيئة المذنب الخائف المنتظر ما يكرهه ،
 إلى كتابها : أى إلى صحيفة أعمالها التى كتبها الحفظة لتحاسب على ما قيد فيها ،
 يفتلق أى يشهد ، نستنسخ أى نجعل الملائكة تكتب وتنسخ :

المعنى الجملى

بعد أن أثبت فيما سلف أنه تعالى قادر على الإحياء مرة ثانية كما قدر على ذلك
 فى المرة الأولى — ذكر هنا دليلا آخر على ذلك، وهو أنه تعالى مالك السكون كله ،
 فهو قادر على التصرف فيه بالإحياء فى الإعادة كما أحياء فى البدء ، ثم ذكر من أهوال
 هذا اليوم أن كل أمة تمجثو على ركبها وتجلس جلسة الخاصم بين يدى الحاكم ينتظر
 القضاء ، وكل أمة تدعى إلى صحيفة أعمالها التى كتبتها الحفظة لتحاسب عليها ،
 ويقال لهم : اليوم تجزون ما كنتم تعملون ، ولا شاهد عليكم أصدق من كتابكم ،
 فهو صورة أعمالكم قد كتبها الملائكة فى دنياكم .

الإيضاح

(ولله ملك السموات والأرض) أى إنه تعالى مالك العالم العلوى والسفلى ، جار حكمه فيهما ، دون مائدعون من دونه من الأوثان والأصنام .
ثم توعد الكافرين أهل الباطل فقال :

(ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) أى ويوم تقوم الساعة ويحشر الناس من قبورهم للعرض والحساب - سيظهر خسران أولئك المنكرين الجاحدين بما أنزل الله على رسله من الآيات والدلائل - بدخولهم في جهنم وبئس المستقر .

وقد جمعت الحياة والصحة والعقل كأنها رءوس أموال ، والتصرف فيها بطلب السعادة الأخروية يجرى مجرى تصرف التاجر في ماله طلبا للربح . أما الكفار فقد أتعبوا أنفسهم وتصرفوا فيها بفعل الآثام والإشراك بالله تصرف التاجر الذى لا يحسن التجارة فوُكس فيها ولم يجد في العاقبة إلا الخسران والخذلان والطرده من رحمة الله ، وذلك ما لا يرضاه عاقل لنفسه ، يزن الأمور بميزان الحكمة والسداد .

ثم بين حال الأمم في ذلك اليوم وما تلاقيه من الشدائد انتظارا لفصل القضاء فقال :

(١) (وترى كل أمة جائية) على ركبها لشدة الهول والرعب ، واستعدادا لما لعلمها تؤمر به حين فصل القضاء .

(٢) (كل أمة تدعى إلى كتابها) الذى أنزل عليها وتعبدها الله به ، وكتابها الذى نسخته الحفظة من أعمالها ، ليطبق أحدهما على الآخر ، فمن وافق كتابه ما أمر به من كتاب ربه نجا ، ومن خالفه هلك وكان من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

ونحو الآية قوله : « وَوَضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » .

ثم ذكر أنهم يندرون ويبشرون بما سببني عليه حكم القضاء فقال :
 (اليوم تجزون ما كنتم تعملون) أى ويقال لهم حال دعائهم : اليوم تجازون
 بأعمالكم التى عملتموها فى الدنيا خيرا وشرها .

ثم بين مستندات الحكم وأدلته فقال :
 (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) أى هذا كتابنا الذى كتبته الحفظة ودونت
 فيه أعمالكم — يشهد عليكم شهادة حق دون زيادة ولا نقص ، فهو صورة تطابق
 ما فعلتموه حذوا القذة بالقذة .

ثم علل مطابقة هذه الشهادة لأعمالهم فقال :
 (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) أى إنا كنا نأمر الحفظة بنسخ أعمالكم
 وكتابتها وإثباتها عليكم أول فأول فى الدنيا ، فهى وفق ما عملتم بالدقة والضبط .
 وفى هذا إجابة عما يخاطر بالبال من سؤال فىقال : ومن يحفظ أعمالنا على كثرتها
 مع طول المدة وبعد العهد ؟ فأجيبوا بهذا الجواب .

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ
 هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
 فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
 وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا
 نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ (٣٢) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
 بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا
 وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ

آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فِإِنَّ اللَّهَ الْحَمْدُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) .

شرح المفردات

في رحمته : أى فى الجنة ، الفوز : هو الظفر بالبغية ، المبين : أى الظاهر أنه لا فوز وراءه ، آياتى : أى آيات كتبتى التى جاءت فى الشرائع السماوية ، وعد الله : أى بأنه محيى الموتى من قبورهم ، بمستيقنين : أى بمتحققين ، وبدا : أى ظهر ، سيئات ما عملوا : أى عقوباتها ، وحق : أى حل ، نساكم : أى نترككم ، نسيتم : أى تركتم ، آيات الله : أى حججه ، غرتكم : أى خدعتكم ، الحياة الدنيا : أى زينتها يستعقبون : أى يطلب منهم العقبى بالتوبة من ذنوبهم ، والإنابة إلى ربهم ، الكبرياء : العظمة والسلطان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أهوال العرض والحساب ، وأن أعمال كل أمة تعرض عليها ، ويقال لهم هذا ما كتبته الحفظة فى الدنيا ، فهو شهادة صدق لاشك فيها — أردف هذا ببيان أنه بعد انتهاء هذا الموقف يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات النعيم ، ويوبخ الكافرون على ما فرط منهم فى الدنيا ويقال لهم : لا عذر لكم فى الإعراض عن آياتى حين كانت تتلى عليكم إلا الاستكبار والعناد ، وقد كنتم فى الحياة الأولى إذا قيل لكم إن يوم القيامة آت لاشك فيه ، قلتم لا يقين عندنا به ، وهو موضع حدس وتخمين ، فها هو ذا قد حل بكم جزاء ما اجترحتموه من السيئات ، وما كنتم

تستهزئون به فى دنياكم ، إذ قد خدعتكم بزخارفها ، فظننتم أن لآياة بعد هذه الآياة — فلا مأوى لكم إلا جهنم فادخلوها ولا تخرج لكم منها ، ولا عتبى حينئذ ، فلا تنفع توبة مما فرط منكم من الذنوب .

الإيضاح

فصل سبحانه فى هذه الآيات حالى السعداء والأشقياء فقال :

(١) (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته) أى فأما الذين آمنوا قلبهم وعملت جوارحهم صالح الأعمال التى أمر بها الدين ، فيكافئهم ربهم على ما عملوا ويدخلهم جنات النعيم . جاء فى الحديث الصحيح أن الله تعالى قال للجنة « أنت رحمتى ، أرحم بك من أشاء » .

ثم بين خطر ما نالوا وعظيم ما أوتوا فقال :

(ذلك هو الفوز المبين) أى هذا هو الظفر بالبعية التى كانوا يطالبونها ، والغاية التى كانوا يسمعون فى الدنيا بلوغها ، وهو فوز لا فوز بعده .

(٢) (وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين) أى وأما الذين جحدوا وحدانية الله فيقال لهم تأنيا وتوبيخاً : ألم تكن تأتيتكم رسلى فقتلوا عليكم آيات كتبتى ، فاستكبرن عن الإيمان بها ؟ ولا عجب فديدنكم الإجرام ، وارتكاب الآثام ، والكفر بالله ، لاتصدقون بميعاد ، ولا تؤمنون بشواب ولا عقاب .

(وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة ؟ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين) أى وكنتم إذا قال لكم المؤمنون : إنه سبحانه وتعالى باعشكم من قبوركم بعد موتكم ، وإن الساعة التى أخبركم أنه سيقمها لحشركم وجمعكم للحساب والثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، آتية لا ريب فيها ،

فاتقوا الله وآمنوا به ، وصدقوا برسوله ، واعملوا لما ينجيكم من عذابه — قائم لعمومكم واستكباركم متعجبين مستغربين ، ما الساعة ؟ نحن لاعلم لنا بها ، وما نظنها آتية إلا ظنا لا يقين فيه .

ثم ذكر أنهم يقفون موقف المتهم المسئول زيادة في تأنيبهم ثم يحل بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب :

(وبدا لهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى وظهرت لهم قبائح أعمالهم التى عملوها فى الدنيا حين قرءوا كتب أعمالهم التى دوتها الحفظة كى لا يكون لهم حجة إذا نزل بهم العذاب ثم جوزوا بما كانوا يهزءون به فى الدنيا ويقولون ما هو إلا أوهام وأباطيل ، وخرافات قد دوتها الميطلون .

ثم ذكر ما يزيد فى تعذيبهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم فقال :

(وقيل اليوم ننسأكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وما أواكم النار وما لكم من ناصرين) أى وقيل لهم تغليظا فى العقوبة وإمعانا فى التهمك والسخرية : اليوم نترككم فى العذاب ، كما تركتم العمل للقاء يومكم هذا ، وليس لكم مستنقذ ينقذكم منه ، ولا مستنصر يستنصر لكم ممن يعذبكم .

والخلاصة — إنه تعالى جمع لهم ثلاثة ألوان من العذاب : قطع الرحمة عنهم ، وجعل مأواهم النار ، وعدم وجود الأنصار والأعوان ، من قبل أنهم أتوا بثلاثة ضروب من الإجرام : الإصرار على إنكار الدين الحق ، والاستهزاء به ، والاستغراق فى حب الدنيا ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(ذلکم بأنکم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتکم الحياة الدنيا) أى هذا الذى حل بكم من عذاب الله بأنكم فى الدنيا اتخذتم حجج الله وآيات كتابه التى أنزلها على رسوله سخرية تسخرون منها ، وخذعتكم زينة هذه الحياة فأثرتوها على العمل لما ينجيكم من عذابه ، ظننا منكم أنه لاهياة بعد هذه الحياة ولا بعث ولا حساب .

(فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) أى فاليوم لا يخرجون من النار ، ولا هم يردّون إلى الدنيا ليتوبوا ويراجعوا الإنابة مما عوقبوا عليه .

والخلاصة — إنهم لا يخرجون ولا يطلب منهم أن يزيلوا عتّب ربهم عليهم أى لا يطلب منهم إرضاءه لقوات أوانه .

وبعد أن ذكر ما حوته السورة من آلائه تعالى وإحسانه ، وما اشتملت عليه من الدلائل التي في الآفاق والأنفس ، وما انطوت عليه من البراهين الساطعة على المبدئ والمعاد — أثنى على نفسه بما هو له أهل فقال :

(قلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين) أى قلله الحمد على أياديه على خلقه ، فإياه فاحمدوا ، وله فاعبدوا ، فكل ما بكم من نعمة فهو مصدرها دون ما تمهدون من وثن أو صنم ، وهو مالك السموات السبع ، ومالك الأرضين السبع ، ومالك جميع ما فيهن .

(وله الكبرياء في السموات والأرض) أى وله الجلال والعظمة والسلطان في العالم العلوى والعالم السفلى ، فكل شيء خاضع له فقير إليه دون ما سواه من الآلهة والأنداد .

وفي الحديث القدسي : « يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحدا منهما أسكنته ناري » . أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه وابن أبي شيبة عن أبي هريرة .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو العزيز الذي لا يمانع ولا يقالب ، الحكيم في أفعاله وأقواله ، تقدس ربنا جلت قدرته ، وعظمت آلاؤه .

وتصارى ذلك — له الحمد فاحمدوه ، وله الكبرياء فعظموه ، وهو العزيز الحكيم فأطيعوه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة من الأغراض والمقاصد

- (١) إقامة الأدلة على وجود الخالق سبحانه .
- (٢) وعيد من كذب بآياته واستكبر عن سماعها .
- (٣) طلب العفو من المؤمنين عن زلات الكافرين .
- (٤) الامتنان على نبي إسرائيل بما آتاهم من النعم الروحية والمادية .
- (٥) أمر رسوله ألا يطيع المشركين ولا يتبع أهواءهم .
- (٦) التعجب من حال المشركين الذين أضلهم الله على علم .
- (٧) إنكار المشركين للبعث .
- (٨) ذكر أهوال العرض والحساب ، وشهادة صحائف الأعمال على الإنسان .
- (٩) حلول العذاب بالمشركين بعد أن تدين لهم قبائح أعمالهم .
- (١٠) ثناء المولى سبحانه على نفسه وإثبات الكبرياء والعظمة له .

تم تفسير هذا الجزء ليومين بقيا من صفر من سنة خمس وستين وثلثمائة بعد الألف بمدينة حلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية .